نهضة العربية الاخيرة

(١)

سادتي الاخوان

سألتموني سعدت بكم اوطانكم ان احدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الاخيرة وما منكم الا من استفيدته واتشرف بالاخذ عنه . انتم من اهل الفئة الفاضلة في وطنكم ومن واجب منكم ان تنيروا آفاق جهله بانوار معارفكم وان تعمروا اكناف معالمه ومعاهده بما اقتبستموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رائعة . فاني لا ازال بينكم متعلماً لا معلماً كان اقوم في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مقالات العلماء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو انصفتكم وانصفت نفسي الا كحال من يحمل التمر الى هجر او المسك الى ارض الترك استغفر الله بل ان حال من يلقي محاضرة على جمعية الاخاء المصرية في باريز اعجب واغرب .

اخواني : تعلمون قرت بكم عيون مصر انه اتت على اللغة العربية ادوار واطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتعس ايام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة . ثلاثة قرون بل اكثر مضت في مرض مستحكم كانت تكون اودت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم على امثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم ان يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين ان يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام في الارض مسلم يوحد الله .

لابد لكل حركة من سبب . وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الاخذ بيدها فاصبحت الامور العلمية صورية ينظر فيها الى الاشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولاً لا غناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما اصاب البلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفي النادر ان منهم حاول تعلم او يعلم من لم يتعرب

وكأن قدرة المولى تعلقت بان هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من ابنائها ان تأتيها

---

(١) من محاضرة القيناها على جمعية الاخاء المصرية بباريز

الصحة على ايدي غيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر ايام محمد علي وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقاً بما له من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من اهل العلم من الفرنسيين فكان من اعماله الجليلة ما عدّ له السحر على الشعر وعمله من حيث خدمته اللغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من اعاجيب الحكام في الشرق . والشرق ابو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل ان محمد علي كان امياً او يقرب من درجة الامية . مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لانه كان ارناؤدياً ولم يحفظ سطراً واحداً لانه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد عني بما لم يعن به احد من ملوك المتأخرين وشرع منذ استتب له امر مصر يختار الاذكياء من ابنائها ممن قرأوا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة الى اوربا ليتخصصوا في العلوم التي اولعوا بها حتى اذا عاد احدهم واتم تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية في الفن الذي اتقنه ويوعز اليه بان لا يخرج من القلعة قبل ان يترجمه بالعربية ويأمر له باسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على امير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس او الى لجنة كانت معروفة اذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد ان تنظر به ترخص بطبعه في المطبعة الاميرية ويغدق الامير على المترجم انواع الهبات ويشرع في ترقيته في المراتب ان كان ممن استعدوا للادارة او الجندية او البحرية واذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليتخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو اعلم خليفة في الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر ما يستكثر ما تم على يد محمد علي الامي الالباني وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين .

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب احد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في ابانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدها الآن في تجددها : لقد ظلت نهضتنا الحالية سائرة احسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من ابناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد شيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في المدارس الاميرية زاعماً بان الواجب على

المصريين بمخاطبة الفلاحين بلغتهم وهذا لا يتأتى الا اذا اتقن المصريون لغة البريطانيين ابتدأت نظارة المعارف في ايامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لابناء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى اوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من اولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لا يبدون حاجة مصر واخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بامثال دنلوب وارثين من كل ما ينفع اللغة او كان من آثار النهضة الاولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً من مستودعاتها كما يطرح القذى والاذى لتسجل العار على من جنوا لغتهم وامهم كما حق اخوة يوسف ابن ابيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرها من مصنفاته

قال غالب بك كان اكثر اساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الاولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسوية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقى على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسوي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلية والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي ان الوقت قد حان لان تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين اذ قد اصبح فيهم الاكفاء الآن وان مهمة فرنسا في تربية ابناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت او كادت .

ثم في ذلك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والادبية على اختلاف انواعها وعادت فاصبحت لغة علم بعد ان انقطع سندها العلمي قروناً واحيا اولئك المصريون امثال الطهطاوي والرشيدي والشباسي والبيلاوي والنحراوي وعماد وبهجت والفلكي وندى والنبراوي والبقلي الفاظاً من لغتنا كانت في حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والاموية في قرطبة والفاطمية في مصر واضافوا الى تلك الالفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سلك عليها اجدادنا المعربون غالباً حتى ان الاتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والايرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا امامهم كنزاً حاضراً ينتفع به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وادمجوها في تضاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين ارسلهم محمد علي الى التخرج في اوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البلاد العربية كافة . واصبحت مصر بفضل ابنائها من علماء البلاد نشأة بالحريّ من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتمد اغصانها للارتشاف حتى عدت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الافرنجية زهاء الفي مجلد . وللامر الاكبر فيها الشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهد محمد علي بما عمله من قبله او ضرب في فن الترجمة بتلامذته ونابغيه من النادي في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها اعمال تدل على نفس طويل وفضل جزيل . ثم خلف تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الايام ومنها الوقائع المصرية ووادي النيل لابي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يقول ان علاقة اهل العلم الحديث ونسبها الى العربية كحياة لغة التي يراد منها آدابها الشعرية والخطوية ليس الا . والجواب انه لا ادب لمن خلت لغته من امثال هذه المعارف . فكأن العلم لا يرتبطان كليًّا بعضها ببعض هكذا اللغة دخل عليها في سلامة آدابها ما تأخذه عن غيرها بل لانها حوت من انواع البدائع والمعاني والالفاظ لا تعد من اللغات الحية الا ان تكن لغة تم فيها كل شيء .

وهنا مسألة مهمة لا نحب ان نمر بها واسطها لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الاخيرة وهي لماذا تدور تاريخ محمد علي وحده القرآن العلم . والعارف لا ابث ان نشير من ملوك الافرنج الامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا العربية . وشارلمان كما لا يرتاب احد كان من اعظم ملوك زمنه وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي انفذ اليه الرشيد العباسي رسولاً من قبله سنة ٨٠١ م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهو الذي كان يحمي المتعبدين اليه من امراء المسلمين الفارين من الخلفاء في قرطبة . كان شارلمان لاول امره أُميًّا تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي الا انه نشيط الغارة والصناعة والآداب تكن معروفا فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المتعلمين والمعلمين الذين كان يستعين بهم في نشر المعارف بانشاء من المدارس باشارة الكبير الشهير استاذه الكوين وبذر البذور الاولى من المعارف في هذه الارض الفرنسوية وبمساعيه أُنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب

ومن العجيب انه حدث لنهضة شارلمان ما حدث لنهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك

انه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لان من خلفوه على سرير الامبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة في البلاد الحديثة قد تقوم بالفرد اكثر من قيامها بالافراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية . اتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم او كاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانشاء عقول الامة وعلى يد الناس من ابنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بعد عهد محمد علي بنحو خمسين سنة متكلة في معظمها على نفسها لا على الحكومة وبذلك جرت العادة بان كل اصلاح يقوم بالامة في هذا الوجه يكون الامر فيه ابقى اكثر مما تقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي نجد فيها تمييزاً بين الامة والحكومة . والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسيها الترغيب في العلم وتميل بها الى اليوم من تفضيل الجهل على العلم . ولهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترتقي في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى علم .

كان الادب العربي قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان وطول بالاطالة والاطناب وجمل باردة معقدة وشعر ركيك اكثره في المدائح والاهاجي وان ارتقى الشاعر الحاذق فانه في وصف الخد والخال وذات الطوق والاحتيال من ربات الحجال او الذكران من الرجال . وما ذلك الا لان الادب الذي يكون به الادب الا قد وقع لكل شيء كثير من امثال هذه الركاكات والسخافات فصرفتها عرض الحائط وجعل الله لها خلفاً في زمن قام فيه من الكتاب امثال محمد عبده واحمد فارس وابراهيم المويلحي وابراهيم اليازجي وابراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبد الله فكري ومحمود شكري الالوسي وجمال الدين القاسمي وسليم تقلا ويعقوب صروف وابراهيم عبده وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم امين واحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويش وصالح حمدي حماد ولبيب البتنوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف واحمد تيمور وزكي مغامز وشاكر شقير وسامي قصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفرح انطون وجرجي يني وابراهيم النجار واديب اسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل واحمد فؤاد و[illegible] ابو حمزة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيرم وخير الدين

التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الخوري وعبد الوهاب الانكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وسعيد الباقي ومحمد مسعود وحافظ عوض وحسن حسني الطويراني واحمد سمير وعبد الغني العريسي ورزق الله حسون ويوسف البستاني وانطون جميل وعادل ارسلان ونسيب ارسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد ويوسف زخم وعبد الوهاب النجار وبشيل يعقوب وخليل زينية ومحمد مسعود واحمد زكي ومصطفى لطفي المنفلوطي وامين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعلوف وديمتري قندلفت ويوسف الخازن ووديع العلاني ومحيي الدين الخياط ومحمد الرياشي وخليل سعادة وداود بركات وبشارة زلزل ويونس زريق وعبد القادر المغربي وبدر الدين النعساني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد وعبد الكريم سلمان واحمد الهاشمي وعشرات غيرهم لا نحصيهم الآن اسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشباننا ومن الشعراء محمود سامي وعبد المحسن الكاظمي واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وشكيب ارسلان وفارس الخوري وخليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وامين الحداد وولي الدين يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عمون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم ومن الخطباء جمال الدين الافغاني وعبد الله نديم وابراهيم الهلباوي وسعد زغلول واحمد الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن شهبندر وانيس سلوم واسكندر العازار وفارس نمر ومحمد ابو شادي وامين ريحاني ومحمد لطفي جمعة واحمد لطفي السيد واحمد عبد اللطيف وعمر لطفي واحمد لطفي وابراهيم اللقاني واحمد محمود وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الاخيرة عملوا لخدمتها في مصر والشام والعراق وتونس اعمالاً وخلف اكثرهم من مآثر فضله ما يدرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله .

وبينما كانت اللغة العربية تزهو في مصر في الامارة العلوية عز على الشام ان تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك في اواسط القرن الماضي وكانت بيروت مدينة وجبل لبنان وسورية موطن تلك النهضة وقد جاءها الناس من مرسلي الفرنسيس والاميركان وانشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية واتقنها كثيرون من اهل لبنان خدموا مدارسهم وكانت اليد الطولى في تنشيط اللغة فريق للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من اعلام مؤسسي

الكلية الاميركية الانجيلية في بيروت تعلّما العربية والاول اميركي والثاني ارمني ودرسا بها مع اقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها انه لما عمدت ان تحول لغة التعليم في الكلية الى اللغة الانكليزية بدل العربية قاوما ما وسعهما المقاومة ولما اخفقا استقالا من وظيفتيهما لانهما ابت مروءتهما الا ان يخدما النصح لبلادهما ودولتها · والدكتور كرنيليوس فانديك الاميركاني في سورية بفضله على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم اشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه الفضل في فانديك اعظم لانه اميركي الجنس والمنشأ ثم في لغة العرب اكثر من اهلها ومن المصادفة ان مصر والشام لبثتا لم تعرفا لهما حقهما الى ما يجب وكان في القطرين ان يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لموليير وغيره او كما رفعت مصر لمحمد علي وابراهيم · والعلماء انما يكونوا احق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا اقل من ان يكونوا في مستواهم ·

ولقد كان من اعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت في ذلك العهد ايضا بطرس البستاني واسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وسواها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من اصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب وناصيف اليازجي واسرته وغيرهم · فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في اقطار الشام ومصر واميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء · وقد تخرج الاستاذ — والمواهب مرزولة منذ خلقها الله — من اول عهد بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه والذي هو احمد فارس الشدياق الذي نترجم له · صديقي سيد احمدي كامل من رجال الجامعة المصرية فآثر التوسع في الكلام عليه ·

اصل هذا الرجل من لبنان من اسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضبا فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وانكلترا وتعلم في خلال ذلك الانكليزية والفرنسية ثم دان بالاسلام والف بعض الكتب ومنها اللفيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه المشهورة كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق او ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ هـ · وضمنه ترجمة حياته وشؤونه وشجونه في اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعده من الانشاء المعروف عند الافرنج بالاهوموريستيك (الجد في الهزل) او الريالست

(الحقيقي) الذي حدث في عهد لويز او الناتورالست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير وشأنه في التصوير ومغالاته في التحرير والتعبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات احمد فارس فيها قاموس الفيروزابادي الذي الف كتاباً مهماً في نقده سماه الجاسوس على القاموس — كانت نصب عينه يأخذ منها كل حاجة مايشاء ويستحضر في دقيقة مايصعب الاتيان به في ساعة ويظن ماشاء بيانه وتبيانه . وكلمة الفارياق مقطع من اول اسمه « فارس » واواخر اسم اسرته « الشدياق » . وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين حملة منكرة لان بعضهم قتلوا اخاه اسعد تعصباً جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لانه دان بالمذهب البرتستانتي (١)

هبط احمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خرج حاله بالعجوة زائدة وانشأ جريدة الجوائب التي طارت شهرتها في الآفاق ورزق الحظوة عند كبار ملوك الاطراف يهادونه ويتحفونه المنائح وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك بهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك اعلم الملوك المتأخرين من ايام ابي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا مراء نابغة العجم والعرب في فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت سير صحفنا التي أسست بعدها على نسقها وقل ان نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية اللهم الا ان تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحي والزمان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لان جريدته كانت كلها اسبوعية وله فيها مساعدون في الاقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر احبابه من النبهاء في شمالي افريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى التحرير في كل ماينشر فينمقه ويزوقه ويأتيك بكلام تستطيبه الاذواق الفارسية . فاحمد فارس هذا ان انصفنا هو واضع اساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابها بما خلفه من آثاره . ومن اراد ان يطلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وان احب الاطلاع على الجوائب برمتها في مجموعها ووضعها فيرجع اليها في خزائن الكتب في اوربا ومصر والاستانة .

ولم يقف عمل احمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه وهي كتاب سر الليال ورحلة

---

(١) وهنا قرئت نموذجات من شعر احمد فارس ونثره من كتابه الفارياق

له الى اوربا حدية محضة وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الادب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من ائمة الادب نشرها على احسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها باثمان زهيدة فعمت بها الفائدة وانشأ طلاب الآداب يحتذون في اساليبها . وما برحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها علاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر العصور والقرون .

ابتلي احمد فارس كالناس حسدوه واي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره ونثره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات الحربية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسها الا جرأة على الجري في مضماره وقبولا بين العالمين لمصنفاته وآثاره . فكان يعده بعض كتاب العربية اشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد ارباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعدما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك اخذ من يعانون صناعة القلم يتأنقون قليلاً فيما يكتبونه واخذت تخف اغلاط الكاتبين والناشرين وتسلم عبارة التأليف كالنقل المأخوذ عن اللغات الافرنجية وهكذا يتوخون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا ان نقول اليوم ان اسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بايجازه ودماثته وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وابتكارهم .

نعم عادت اللغة العربية ولاسيما في الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذلك السجع المتكلف الذي انشأه العماد الكاتب الاصفهاني من الفرس — والفرس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في اكثره الا ان من جاؤا بعده قد افسدوا به علينا لغتنا لانهم لم يتقنوه .

واني لا ازال اذكر ما كنت اكثر من مطالعته واستظهاره ايام ولوعي بالادب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الاصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الادب لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت اطرب لتلاوتها ولا اكاد اتركها في خلوتي

وعلوقي . ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية والآن ابحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتصنع ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وابي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الاصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت اعجب من نفسي كيف اضاعت وقتها في تلقف تلك الاسفار المسجعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يشبع الجمال تعداده وهو في الحقيقة ونفس الامر مادة ادب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت اعجب من اقبالي ايام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعندي العرب من اهل هذا الشأن امثال ابي تمام وابي الطيب وابي عبادة وابي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وابي فراس الحمداني .

يرجع الفضل الاكبر في انتشار دواوين الادب والتاريخ واللغة من كتبنا للعلماء المشارقة من الغربيين امثال دوزي ودساسي ووستنفلد وعشرات غيرهم من اهل اوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي الفت في اوقات مختلفة في مصر لاحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا المخصص لابن سيده احسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال امالت العربية على تحسين آدابها وترقيتها . ولا ننسى غيرة اولئك الذين سبحوا في منظومهم ومنثورهم على مناحي الاوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز واولئك الذين وقفوا انفسهم منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم افكار الغربيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الادبي على ما نرونه وجددوا اللغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من الفناء واصبحنا نرجو لها دوام البقاء والارتقاء .

انا لا اقدم لكم مثالاً من امثلة ارتقاء لغتنا اكثر من ان احيلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والمحروسة في مصر وان ترجعوا الى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا اليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء . فاطلبوا المنشورات

التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من امثالها منذ مئة سنة مما اورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفصه . قابلوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به السن المحامين واقلامهم في مصر من النفس في اساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان لغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب الحماسة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا الخطباء اليوم ممن درسوا الدروس الخطابية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع او يقرأونه من سجعات في دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم وان كان فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة . اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والمقلدة الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلاً تدركون كيف وفقنا الله الى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع في الاداء والانشاء

اليس مما يعد من نهوض اللغة ما نراه من احكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فلقد رأينا طلبة احدث تخرجاً من دار العلوم فكانوا والله اعرف بالعربية وفنونها من اكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخيرة على حين انا من تخصص منهم بالتدريس والقلم فهم ما نفخر من مظاهر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء واخطأهم بحكم الوقت احاطة اولئك العربيين .

واليكم ايضاً مثالاً صغيراً اذكره لكم على ما اتت به بعض مدارس مصر في حياة الامة فلقد شاهدت في وادي النيل بعض العدد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها الى روح البيان والتلطف في التعبير بما لا تقرؤه في مطولات المحشين والمحشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك الا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد في مسامع الناس وانظارهم كل يوم من فصيح العربية وشواردها وتنفس فيه من اساليب التعليم . على ان مطالعة الجرائد والمجلات اعانت على انتشار الآداب واوجدت القوة على النظر في نفوس ارباب الاستعداد

ولما رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع اهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم ما زال اهلها الى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فان مدينة فاس منذ القديم

ماحلت من المراد يعلمون الآداب في الاصول الفصيحة ، ولكنهم في الحالة خير من اهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم ورداً بعد في الطبقة الثانية في كتابة فيما لحظت وما ذلك الا لان اللغة العربية ضعفت في بلاد الجزائر في دور من الادوار سوى لغة ولان حكومتها تحاول منذ القدم ان تجعل العلم فرنسياً في لغتهم وافكارهم ومنازعهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي واشباهه من الاعمال فقد ثبت الآن ان ترقية ملكة العربية لاجل التوانسة الاذكياء من المدرسيين وغيرهم . اما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من جهات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد عربي في تثقف ملكة العربية واعني به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ الشهير في عصرنا . وطريقة اهلها طريقة الاقدمين في التلقي والاستظهار وقد شاهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل الجزء مع القاموس واحسن من يحسن فهم هذا الكتاب فلا الى حتى في شيوخ الازهر .

اما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في احياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الاخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب ودائرة ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا ان ذلك لم يحل دون نبوغ بعض افراد منها كان لهم مشاركة في صياغة العربية وهي مع بعض الرسائل الذين نشأوا الذين الفوا وكتبوا ومنعهم الحجز على الافكار الذي دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا احاشي اذا قلت ان ثلاثة ارباع ملكة العربية من ارتقائها في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس . ومن الاسف انا لا نزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون اشبه بالتركية والكردية منه بالعربية الصحيحة فتسقط فيها من الاغلاط في التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ما نسأل الله معه السلامة واقل من ذلك علة تلك الجرائد التي صدرت اخيراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل والحسن منها جرائد سوريي سورية في اميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تقل عن الثلاثين جريدة وفيها الجيد والسقيم . ومع هذا فان الامر لا يريب بان لا نحتسب

هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والهاء والثاء والذال والظاء . ورقيت اجتماعيات المهاجرين من ابنائها امثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه الامة ومهبط انوارها واريد بها الحجاز واليمن ونجد اذ ان فيها بقايا من ارباب الذكاء النادر الى الآن من لو تمرنوا على العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاتى على ايديهم خير كثير للامة ولا يرجى ذلك الا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على اموالهم وارواحهم ليتفرغوا او افراد منهم للدرس والاستفادة

هذا ما احضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة القريبة في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وسماحة عفوكم تدعني وانتم تعلمون اني على اوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

* * *

طريقة التعليم

كان من اول الاصلاح في اوربا اواخر القرون الوسطى واوائل القرون الحديثة لما شرعت الامم الراقية فيها تدرس العلوم المادية والادبية ان اتت على طريقة التعليم تصلحها بما يقتضيه حال الزمن والتجارب فتم لها في اوائل القرن الماضي تنظيم مدارسها على النحو الذي نراها عليه اليوم واصبحت بفضلها الطالب يتعلم في بضع سنين لغتين او ثلاثاً معها ما يحتم عليه معرفته من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والادبية والاقتصادية فيخرج الطالب بعد هذه الدروس السطحية الاولية ملماً بفروع كثيرة من مبادئ العلوم واصولها المقررة لاعداد العقول للتفكير والانامل للكتابة والالسن للنطق والاجسام للحركة وهذه الدروس التي يسمونها دروس الموسوعات (الانسكلوبيذية) يمر فيها الطالب على كثير من المطالب تمهيداً اذا اراد الاقتصار عليها والانصراف الى اكثر الاعمال التجارية والصناعية والزراعية والعلمية . واذا سمت به همته الى الاختصاص في كل واحد من العلوم التي درسها في الجملة تخصص لها ويدخل مدارسها الخاصة كمدارس الزراعة والتجارة والمعادن والميكانيكيات والادب والطب